حكاية الابله

اجعل اسم الكاتب كوني عثرت على القصة بالصدفة ولكونها مادة تستحق الحفظ

دونتها كما هي بالمماسح الضوئي

سألته بكل ما يملك صوتها الفتي من ثقة وتحرر وانفتاح ..

— : هل تعرف (حامد) ..؟

— : (حامد) ..؟ انه صديقي منذ الطفولة وحتى اللحظة .. لكن لماذا ..؟

— : انه يثير فضولي .. اريد ان اراه واتعرف عليه .

— : حسنا .. سأدعوه في اقرب فرصة ، بالرغم من ان الشيطان نفسه يعجز عن العثور عليه اذ انه كثير المشاغل ولا يستقر به مكان .

نظرت اليه زوجته الجميلة وقالت ضاحكة ...

— : اذا عجز الشيطان فانت لا تعجز ... ادعه ، وسأهيء لكم وليمة فخمة تدهن حناجركم التي سيجففها الزعيق والصراخ عند الحديث ..!!

قفزت (سعاد) بخفة القطة ، والمدلاة الكبيرة تصطفق بين ثدييها الشامخين ، ثم انحنت على خد (هيفاء) وقبلته قبلة رنانة ثم صرخت ...

ـــ : لولاك يا هيفاء لضعت ... انت وكمال تتنافسان في جعل الامور اكثر سهولة ومرونة ... انا فخورة بكما وبصداقتكما .

استغل كمال انشغال زوجته بالقبلات فاختلف نظرة شرهة عميقة الغور الى جسد سعاد المنحني بليونة وتلقائية مثيرة ... جذبته رحابة الجسد وامتداده ، كما جذبه بنطلون (الكاوبوي) شديد الضيق ، فركز عليه بصره طويلا ... ازداد انحناء سعاد ، فارتفع ذيل قميصها الصغير من الخلف وكشف عن مساحة واسعة من عري ظهرها ... زاغ بصر كمال ثم التهب وجهه وأفلتت من فمه آهة عالية ...

ـــ : ماذا بك يا كمال .. هل نسيت عنوانه ..؟

سألته هيفاء ثم ضحكت ، بينما اعتدلت سعاد واخذت تشد ذيل قميصها الازرق القصير من الخلف ، غير انه لم يستقر على الحزام العريض وظل مرتفعا ليكشف عن شريط ضيق من اللحم الاسمر الناعم البض ...

ـــ : عنوان .. من ..؟

واجتاحتها رعشة باردة ، وشعرت بالدبيب السري ، والطـوفان .

× × ×

دخل حامد في بيته ، فانطلقت السيارة هادرة في هدأة الليل .

ـــ : اهذا هو بيته ..؟

ـــ : نعم ، هذا هو بيته ... اين كنت تتوقعين مســـكنه . في السحاب ..؟!!

ـــ : أي سحاب هذا ..؟ رجل على هذه الشـاكلة . لا يعيش في سحاب !!

لم يكن كمال يتوقع رداً لاذعا ، ولذلك فقد كبح ضحكته التقليدية واخفى امتعاضه واستسر يحملق امامه في الظـلام ... انكمشت سعاد في مقعدها الخلفي مختلية بنفسها ، وبدت هيفاء وهي جالسة قرب زوجها وكأنها تنام على كتفه المتيبس وهو يندفع بسيارته محتقن الوجه ... اشعلت سـعاد خلال فترة الصمت الطويلة سيجارة ثم قالت ...

ـــ : للنساء في مسرحيات حامد ، مواقف ومواقع مختلفة ... اما بطلته في هذه المسرحية فقـد بدت لي غامضـة وغير محددة ... ما رأيك ..؟

ـــ : اعتقد انه اراد ان يطرح قضية (الترفع) هذه المرة .

ـــ : الترفع ..؟ الترفع عن ماذا ..؟!!

ضحك في سرّه متهكما ليبعـد وخزة القلق التي ضربت صميمه ... لماذا ..؟ لماذا امتنعت عن التدخين في حضرة هـذا

ـــ : لماذا اتيت به ..؟!

ـــ : من هو ...؟

ـــ : الابله ... انت تدري انني احتقره واضيق به ... ثم ، ألم تشعر حتى الآن انه مخلوق لا يليق بجلسة كهذه ولا بأناس كهؤلاء ..؟!

لفظت سعاد كلماتها وكادت تبصق غضبا واشمئزازاً .

× × ×

صعدت سعاد الى سيارة كمال ثم جلست جنبه ، والرعشة ما زالت تسيطر على جسدها ... لم تصدق كيف افلحت في انتزاع لحم زنديها وساقيها من بين انياب نظرات (الابله) ... شعرت به يمزق ملابسها ويعريها امام المدعوين ... احست به يرفضها (كأمرأة) ، ويتقبلها متلمظا ، كفاكهة نادرة أو (اثى) نادرة ... اختلجت معدتها بشدة فضغطت عليها باصابعها ثم اتكأت على ظهر المقعد وصمتت .

نظر اليها كمال بزاوية عينه وتذكر انها سألته ذات مرة عن سبب غياب (الابله) ، لان الجلسة بدونه تكون جافة ومملة ... ظل ينظر اليها ويفكر : الابله ما زال هو هو في كل موقع ومكان ، وقد عرفته جيداً ثم تقبلته ، لماذا ترفضه الآن..؟!!

ـــ : كنت أود لو جلست حتى الصباح لولا ذلك الابله ... ولولاهم ...

ـــ : وهل عادوا يضيقون عليك من جديد ..؟

ـــ : الحكاية نفسها ... ماذا تنتظرين وقد تجاوزت سن الزواج بمراحل ..؟!

ـــ : هذا سؤال دارج لابد وأن يطرح على كل فتاة ... انك ـ كما ارى ـ تبالغين في كل شيء يا سـعاد ... لا حدود فاصلة عندك بين قمة الرفض وقمة القبول ... بين الاندفاع والنكوص.

لم ترد عليه سعاد وبقيت صامتة ، تشعر بانها قـد كشفت نفاقه وتزويره ، وان كلامه قد بدا لها مجرد سذاجة وغباء .

× × ×

أوصل كمال (سعاد) الى بيتها وانتظرها حتى دخلت ثم عاد الى بيته ، فوجد زوجته قد رفعت كل ما خلفوه وراءهم من فوضى، واعادت كل شيء الى مكانه ثم ركنت الى فراشها ونامت .

اضطجع على ظهره الى جانبها واخذ يفكر : هؤلاء الحمقى .. هؤلاء الخراف ... هل يجرؤ احدهم على مزاحمتي والتسلل الى مواقعي او تحطيم موقفها مني ..؟ على المنافس اولا ، ان يمتلك البديل الاعمق ، تلك هي مشكلتهم ... اما هي ، فقـد سبرت اغوارهم وفرغت منهم ... ومن يا ترى يمتلك هذا البديل الاعمق، حامد ..؟ انه آخر الخراف ... (الابله) ، انه اضحوكة لابد منها لكل مجلس ... سعاد تعبد الضحك والمزاح ... ولكن لـم ضاقت به الليلة ..؟!!

لم تنم سعاد تلك الليلة ... اقلقهـــا طوفان من المشـــاعر والنداءات الجسدية الحادة التي لم تألفها من قبل ... ظلت تتساءل حائرة مؤرقة : من أي مصـــدر تنطلق رموز الاثارة ، ثم يأتي الغرق ؟.. هل هي لغة ذلك الحوار السري المتناوب بين الذكر والانثى ...؟ ام انه الصوت ...؟ أم انهـــا الافكار الجامحة التي سحرتها وجعلتها تتلمس في نفسها ومضات اخرى ...؟ أم انها حقائق الرجل ومواقعه ...؟

استعرضت في ذهنها كل الرجال والاصوات والحوارات التي طافت من حولها ، فوجدت انها ما زالت حينذاك كما هي ... تأتي الهزة ثم تذهب بذهاب الحالة والموقف ... لا هياج ولا طوفان ولا غرق ... والآن ، ما هذا الذي يغلي في دواخلهـــا ...؟ هي واثقة بأنها لم تخسر مواقعها كامرأة ولا كانثى ، ولكنها واثقة ايضا، بأن شيئا في اعماقها قد انكمش ثم تراجع واندحر ... انه الصوت والحوار ... ذلك الصوت والحوار ... هو الذي دحر في اعماقها شيئا ... وانقلبت على ظهرها ثم افردت ساقيها ، وغرقت في موسيقى الصوت والحوار .

× × ×

ـــ : تعالي بقربي يا سعاد ... لماذا تجلسين بعيدة ...؟!

نهضت سعاد من الكرسي الذي جلس عليه حامد منذ اسبوع وجلست قرب هيفاء ثم واصلت معها حديثها الهامس ...

صاح كمال بصوته المرح ...

ـ : هيا ، هيا .. لا وقت للاحاديث السرية ... الطريق طويل ، ولم يبق على بدء المسرحية سوى نصف ساعة ... هيـــا ، يا هامسات .

قالت هيفاء بصوتها الهادىء ...

ـ : ألم تلاحظ شيئا جديداً يا كمال ..؟ انظر الى ملابس سـعاد الانيقة المحتشمة ، الا تجد فيها كل النبل وكل الثقة ..؟ كنت اهمس لها ، بأنني احبها هكذا ... هـــذا هو رأيي ، الا تشاركني فيه ..؟!!

لم يجب كمـــال ، بل اكتفى بنظرة خاطفة الى التشـــكيلة لمحتشمة جداً ثم اطلق ضحكة غامضة ... كانت مخيلته تستعيد مشهد بنطلون (الكاوبوي) الخانق ، والقميص الازرق الصغير مرتفع الذيل ... ثم شـــريحة اللحم الاســـمر البض المطلة من تحته ... همس لنفسه ... ما هذا التحول يا سعاد ..!!

× × ×

انتهت المسرحية ، فاقترح كمال ان يقضوا بقية الســـهرة في النادي . اراد حامد ان يعتذر فألحت عليه سعاد متذرعة بأنها ترغب في فهم المزيد مما جاء في مشاهد المسرحية .

وهناك ـ في النادي ـ التقوا ببعض الاصـــدقاء ... ودار النقاش ثم ارتفع واحتد ... وفي أذني ســـعاد ، انصهرت كل الاصوات في بوتقة واحدة ورنين واحد ... هذا هو الصـــوت ينطلق ثانية ... هي ذي المفردات الموجزة والافكار والايحاءات ذاتها ، وها هي شحنة التيارات تنطلق وتتناوب وتصعق ثانية ...

واجتاحتها رعشة باردة ، وشعرت بالدبيب السري ، والطـوفان .

× × ×

دخل حامد في بيته ، فانطلقت السيارة هادرة في هدأة الليل .

ـــ : اهذا هو بيته ..؟

ـــ : نعم ، هذا هو بيته ... اين كنت تتوقعين مســـكنه . في السحاب ..؟!!

ـــ : أي سحاب هذا ..؟ رجل على هذه الشـاكلة . لا يعيش في سحاب !!

لم يكن كمال يتوقع رداً لاذعا ، ولذلك فقد كبح ضحكته التقليدية واخفى امتعاضه واستسر يحملق امامه في الظـلام ... انكمشت سعاد في مقعدها الخلفي مختلية بنفسها ، وبدت هيفاء وهي جالسة قرب زوجها وكأنها تنام على كتفه المتيبس وهو يندفع بسيارته محتقن الوجه ... اشعلت سـعاد خلال فترة الصمت الطويلة سيجارة ثم قالت ...

ـــ : للنساء في مسرحيات حامد ، مواقف ومواقع مختلفة ... اما بطلته في هذه المسرحية فقـد بدت لي غامضـة وغير محددة ... ما رأيك ..؟

ـــ : اعتقد انه اراد ان يطرح قضية (الترفع) هذه المرة .

ـــ : الترفع ..؟ الترفع عن ماذا ..؟!!

ضحك في سرّه متهكما ليبعـد وخزة القلق التي ضربت صميمه ... لماذا ..؟ لماذا امتنعت عن التدخين في حضرة هـذا

(الحامد) ...؟! ترى هل انقلبت الدنيـــا ثم القت امامه (آخر الخراف) ليزاحمه الطريق ويثير بوجهه الغبار ...؟ حسنا ،سألتقى بك وبحواراتك الثقيلة ذات يوم ، يا كبش المسارح ... وسوف نرى ...

اعتدلت هيفاء بجلستها ثم قالت بحماس ...

ـــ : الم تشعروا به وهو يلمّح الى مسألة النزعات البدائية عند الانسان ، ويعتبرها (اذلالا) يجب اســـتئصاله والوقوف ضده ...؟ أذكر انه رمز اليه مرة (بالاصالة) ، ومرة اخرى (بأعتزاز الانسان بموقعه كانســـان) ... وكانت البطلة ترى : ان الاستجابة للنزعات البدائية ، ما هي الا صفـــة حيوانية بحتة ... والمرأة بعد ذاك ، تفقد ـ لو انحدرت الى هذه الصفة ـ موقع المطالب او الطامح الى الحرية والسعادة، لانها فقدت موقع (المقاتل) او موقع (الندّ) من الاقوى والارفع .

قاطع كمال زوجته ساخراً ...

ـــ : اراك تبالغين كثيراً في تفسير رموزه واشاراته ... لو صـــح ما تقولين لكان معناه انه يتحدث الى قطيع من اشباه البشـــر الذين لا يملكون الوعي أو الادراك الكافي للتحكم بعقولهم أو اراداتهم .

عادت زوجته فقاطعته بسرعة ...

ـــ : وحتى البشر الاسوياء ، تجدهم يصرون على تفسير انحدارهم نحو بداوة غرائزهم ، بانه (وعي عقلي وارادة مدروسة)

وليس استجابة حيوانية او تخلفا .

صاحت سعاد من مقعدهـــا الخلفي وهي تغص بدخـــان سجارتها ..

ـــ : كفى .. كفى يا هيفاء .. هذا كثير .. انتم تذهبون بعيداً.. المسألة لا علاقة لها (بأصالة او جوهر) ... قد تكون ظرفا خاصا أو حالة فردية معينة ، تختلف بين انسان وآخر ... المتحاورون في النادي ، قالوا وتحدثوا عن كل شيء ولاحاجة بعد الى الاعادة والتكرار .

× × ×

استلقى حامد على فراشه واخذ يستعيد نقاط الاعتراف التي طرحت بين المتحاورين ... « الظروف هي التي تقرر المواقف » .. « العاطفة جزء من الغريزة » ... « الحب اقوى » ... « منطق الغريزة اقوى » ... « الاصالة هي التي تقرر » ... « من منكم ينكر دور الحالة الاقتصادية.؟ » ... «والحرمان الجنسي .؟».. « العقد والامراض النفسية » ... واخيراً : « بطلة مســـرحيتك جاءت من عالم لا تأسره الاهواء والمصالح ولا تستعبده الغرائز ».

ومن بين هذا الضجيج من الآراء والتحليلات ، وجد نفسه يستعيد بذهنه وجه سعاد وهيئتها المحتشمة وصمتها الغريب فود لو انها ادلت برأيها وقالت شيئا ، وكم شعر وهو يشرح موقف بطلة مسرحيته ، ان هذه البطلة حية وموجودة ، وانها تجلس بقربه، وانها تؤكد على واقعية فكره وصدق رؤاه ... وانه من ثم ، لم يأت أو يحلم بواحدة من عالم آخر ... وسمع في اعماقه صـــوتا

نسائلاً : « وما الاصالة ؟ » ... وسمع نفسه يجيب : نعم .. نعم .. الناس يختلفون عن بعضهم ، هـــذه بداهة وتقرير ... لكنني ابحث عن (النقي) من بين هذا الاختلاف واشير الى ادواره قوة الحياة فيه ... لم لا ؟ ... ما دام البعض قد افلح في سحق صداقته وتفاهته وسخفه ، فلابد أن يفلح الآخرون ... لم لا ...؟! اغمض عينيه وهو يبتسم للامل الكبير والفرح الذي افعم قلبه.

× × ×

اخذت ليالي الارق تتكدس في عيني سعاد ... ليس هو ارق عطش الجسدي ، ولا ارق العسر المحترق ، وانما هو ارق غامض، ق مهين وجارح ومذل .

الاحلام الشفافة المؤنسة كانت قليلة وقصيرة ، وكانت هي لاخرى بخيلة بكشوفها وحلولها ... كم تمنت لو قادتها احلامها الى حافة الاختيار واسلمتها الى مركز خال من الذبذبة والتأرجح .

انقلبت على ظهرهـــا لكي تتيح لذهنهـــا مزيداً من التحرر والانطلاق ، ولكي تتعقب مجرى الارق الخفي بعاطفة محايدة ... واخيراً ، وعنـــد نهاية رحلة التعقب ، جوبهت بينبوعين كبيرين يصبان في نهر واحد : « بطلة المســـرحية كموقف » و « سعاد ، كامرأة او كأنثى » ... وفي الجانب الآخر ، حيث ينتهي النهر ، كان البحر ... كان الصوت والحوار ... وكان حامد .

نشرت ساقيها ثم غرقت في نوم كابوسي متقطع كانت تسمع نفسها تردد فيه ... « حامد .. ماذا اريد منـــه ؟ ماذا يريد مني ؟ ما هو موقعي منه ؟ » .

× × ×

وقف كمال امام المرآة واخذ ينظر الى ملامحه الطافحة بالزهو بنشوة عميقة وضحك سرّي صامت ... هذا الوجه ، وجهك يا كمال : لا منافس ولا ندّ له ... وهذا الجبين ، لا ند ولا منافس لما وراءه .

تذكر وهو يغمز لوسامته المعلومة ، نبرة صوت زوجته وهي تقول بغموض : « هل اكتشفت التغيير الذي طرأ على ملابس سعاد وعلى سلوكها ؟ » ... لم يجب عليها آنذاك بكلمة واحدة ، وانما اجاب بابتسامة ماكرة ... وها هو يبتسم امام مرآته الآن ، يبتسم لوسامته واشراقة جبينه وفحولته ثم يردد : أنا أعرف ان خيوط الصيد في يدك يا سعاد ، اما « الطعم السام » فهو في يدي ... من يدري ، قد اجد في شبكتك سمكة قرش ، يا سوسو ... عاد فتأمل صدره كثيف الشعر .. ثم لعق شفتيه بشهية وترك المرآة .

× × ×

قدم لها سيجارة ، فقالت « انا لا ادخن » ... وقدم لها مشروبا فقالت « انا لا اشرب » ... وفي كل لقاء بينهما تجده يكرر هذين السؤالين : « أتشربين ؟ اتدخنين » ... وفي كل مرة كانت ترفض ... ذات مرة ، كادت ان تنسى اصرارها على الرفض وتختطف منه السيجارة والكأس ... ولماذا هو ينسى ويكرر اسئلته في كل لقاء ؟. هل هو ينسى حقا أم انه يسخر منها ..؟! ولماذا كذبت عليه في كل مرة .. ولماذا تكذب الآن..؟!

ها هو الان يجلس امامها ويتحدث اليها بألفة وطمأنينـــــة وانطلاق ويلاحق عينيها الهاربتين بلهفة وحنان ، فلماذا تشيح عنه وتخشى بصره ..؟! ووجدت نفسها تبذل جهدا مرهقا لكي تتصرف وتتحرك بما يلائم جلستها ورصانتها وحشمة ملابسها ... «هكذا كانت تفعل دوما بطلة المسرحية » ..!!

ومن خلال حديثه البسيط الهادىء ، اكتشفت لغة اخرى .. انها لغة الرموز المتسائلة ... وتأكدت من ان هذه اللغة ـ لغة الرموز ـ ما هي الا حزمة اضواء خفية كانت تخترقها لتبحث عن حقيقتها من بين عشرات الاقنعة والوجوه الملونة والاجساد الناضحة بالعطور والاصباغ والمعقمات ، وان في لغة رموزه هذه ، قلقا دفينا وظمأ قديما ، وانتظارا للمستحيل !! اما صوته ، فقد بدا لها وكأنه رياح ربيعية هامسة ، مرت لتفتح لها أبواب حاضرها العريض ثم تقودها الى (نقطة اختيار) ذات مسالك وطرقات متشعبة متنافرة.

ومن بين همسات صوته الواثق المستكين ، كانت تطل على اعماقها ثم تهمس لنفسها : حركة (العُمر) ؛ قد ترعب وتخيف ، ولكن ان يتجسد (العمر) في احضانك ، وتشيخ الايام بين يديك وانت تتحاور بلغة الانتظار ولغة الدوران الى كل جهاتك ، فذلك هو الخوف الاكبر ... الرعب الاكبر ... وماذا يحدث لو اضعت مركز دورانك وفشلت في الامساك بحقيقتك ، بجهة صغيرة من جهاتك ..؟. وماذا يحدث لو امسكت بالطين والتراب ، بالخواء والتفاهة ..؟! الانتظار : أهو (الترفع) ..؟ (نقطة الاختيار) ،اهي

نقطة قيمة المرء والحياة ؟ وهل هي الترفع ؟؟!

× × ×

حبيبتي سعاد ، صدقيني ... انا لا اطيق رؤيتك ساهمة واجمة . وقفزت نحوها ثم احتضنتها بقوة وقبلتها من فمها قبلة طويلة حميمة .

ارخت سعاد رأسها على صدر صديقتها برهة ، لكي تزدرد غصة حادة احتبست في حنجرتها ومنعتها عن الكلام .

ـــ : اشعر بالسقم والملل يا هيفاء ... احسّ بالخوف ... انني ضائعة ...

ـــ : ممّن اسمع هذا الكلام ، منك انت ؟؟ انت سعاد ؟؟ انت تقولين هذا الكلام وحولك كل هـــذا المحيط الكبير من الحركة والانطلاق والاصدقاء والاهتمامات ؟؟!!

ـــ : هذا هو سقمي يا هيفاء ... انني اتخبط في كل هذا البحر ولا اجد ما ارتكز عليه واستكين اليه ، ولا المس ما ابحث عنه ، حتى تهت وتبعثرت واصـــبحت لا ادرى ولا اعرف ما اريد ... تصورت الحقائق موجودة في عالم غير هـــذا العالم ، وان النســـاء زيف وخواء والرجال زيف وخواء والاماني زيف وخواء .

صمتت ثانية ثم دفنت راسها في طيات صدر صديقتها مرة اخرى ، واغمضت عينيها على حيرة وقنوط .

ـــ : صارحيني يا سعاد بكلمة واحدة ... اتحبين ؟؟!!

جفلت قليلا ثم فتحت عينيها ، ولكنها بقيت ملتصقة كالقطة

بلحم الصدر الفاره الذي اخذ يزداد علواً وانخفاضا ... كانت أفكارها القلقة المتوترة تحرك شفتيها في همس ذابل ... الانسان اذن ـ كما تشتهيه بطلة المسرحية ـ هو (معالجة وصبر) ، والصبر، هو (الترفع) ... فان خسرت ارادة الصبر ، خسرت حق الحرية والسعادة وخسرت مواقع (الند) ... ثم ، نقطة الاختيار ، هي قيمة المرء وقيمة الحياة ..!! والله ، طز .. لهذا الهـواء .. وألف طز !!!

وضعت هيفاء اصبعها تحت ذقن سعاد ثم رفعته برفق وقالت ضاحكة ...

ـــ : ماذا تهمسين لنفسك ..؟! هيا تحركي ... بعد قليل سيأتي كمال ونخرج سوية للنزهة ... سوف نأخذ معنا حطبـــا ونشوي السمكة هناك ، وسيتكفل (الابله) بها لانه اكثرنا مهارة ... قلت لك هيا تحركي ... هذا الشرود والعبوس لا يليقان بك ... ســـوف نمرح ونتســـلى مع الابله ، ... لا احد يسليك وينتزع الضحك منك غير هذا الابله اللعين ، رغم قبحه وبلادته .

× × ×

ما أن يحضر (الابله) جلسة خاصة او عامة ، حتى تثور حوله عاصفة من السخرية والضحك والتعليقات البريئة او اللاذعة ... وكان هو ، يتقبل هذه العاصفة ويسعد بها ويعتبرها جزءاً متمّما وضروريا لشخصيته ولسعادته ، والتي لولاها ، لفقد كل ما يربطه بالدنيا وكل ما يعتاش به بين الناس ويشده اليهم .

ان التناقض الحاد بين سذاجته وبلاهته وبين ضخامة جثته وضخامة اعضائه المفرطة ، هو السبب الرئيس الذي يثير حوله كل تلك العواصف من الضحك والسخرية والتهريج ••• وهو ـ الى جانب ذلك ـ رجل مطواع وتحت الطلب ••• خدماته وفكاهاته ونوادره وحركاته الغريبة ، كلها تحت الطلب ، ووفق مزاج ورغبة ونفسية الناس الذين يلتقونه او يحيطون به •

في يوم النزهة هذا ، انجز الابله دوره على اكمل وجه ••• استل المرح والضحك من اعماق سعاد وجعلها تنسى كآبتها ووجومها ، ثم دفعها الى الركض والقفز والصراخ في كل موضع ومكان ، حتى سقطت في قعر ساقية جافة فالتوت ساقها وانطرحت متوجعة متأوهة فوق التراب •

ما أن لمحها تسقط حتى اندفع نحوها مسرعا وأقعى على التراب ثم امسك بساقها من تحت الركبة ورفع ذيل البنطلون الواسع واخذ يدلك كاحلها بهمة ونشاط ••• صرخت من الالم ، ترك كاحلها وصعد بكفه الضخمة الى (ربلتها) الريانه ثم طفق يدلك ويقرص ويهرف بلغوه وفكاهاته ••• هزت ساقها رعشة غريبة ثم شعرت بالنار وهي تسري تحت ضغط اصابعه القوية ، وعندما جس" باطن ركبتها العارية ، تضاعفت الرعشة واشتدت لسعة النار فتململت وحاولت ان تسحب ساقها ••• صاحت هيفاء من مكانها باشفاق وحنان •••

ـــ : لا تحركي ساقك يا حبيبتي ••• دعيه يعمل بهدوء •

استمر الابله في تدليكه صعوداً ونزولا الى ان زال الالم تماما فنهضت سعاد وراحت تنفض التراب عن شعرها وملابسها ، ونهض هو بدوره ثم اخذ ينظر الى يده المبللة بالعرق ويضحك عاليا ... صاح به كمال منتهراً ...

ـــ : كف عن التهريج يا ابن اللئيمة ... ان وجدت شيئا ثمينا فأنا شريكك .

اقترب الابله من سعاد وفتح كفه امام عينيها وهو يردد ... « انه عرق جلدك .. انه عرق جلدك » ..!! ثم رفع ذراعيه في الهواء واخذ يرقص ويتلوى ويقلد اصوات نباح الكلاب ، وقد تجلت كل فحولة اعضائه وبرزت صلابة ظهره الذي احرقته الشمس .

جلست سعاد فوق العشب الرطب لكي تكتم احساس الغثيان الذي ضرب معدتها ، وكانت تعابير الاشمئزاز ترتسم على وجهها حين تردد نظراتها الحائرة المندهشة بين كف الابله المنداة بالعرق وبين حركاته البذيئة الفاضحة .

× × ×

ـــ : لا اعتقد انه سيأتي ... يجب ان اذهب الآن ، لقد تأخرت كثيراً .

ـــ : اذا ارتبط حامد بوعد ، فلابد أن يفي بوعده ... تلك احسن خصاله ..!!

لفظ كمال كلماته بلهجة مسرحية مزركشة حاول ان يخفي بها

ضيقه وتبرمه ثم همس لنفسه : سعاد تغيرت كثيراً ، هذه حقيقة ثابتة ... انها يوم ترتبط بموعد مع حامد ، تظهر وكأنها فتاة اخرى .. ملابسها الجريئة .. تحررها في الكلام وفي الخوض في اشد المواضيع حساسية واثارة .. مفرداتها المميزة الصارخة .. التدخين .. الشراب .. نبرة الصوت ... كل ذلك يتغير ويتحول ويختفي بمثل لمح البصر ... نعم ، هذه حقيقة ثابتة ، فماذا حدث ..؟! ولماذا ..؟ هل هو وجود حامد (آخر الخراف) ..؟ هذا مستحيل .. مستحيل ... ماذا يملك هذا المخلوق البائس غير التجهم والهراء ..؟!!

نظر اليها وهي شاردة مطرقة ، فروعته فكرة ان تفلت من بين يديه ... انها النصف الآخر من هيفاء ، فبدونها تبهت ظلاله وتتساقط افكاره وابعاده عند حدود قدميه ، وبدون هيفاء يفقد أمنه ومواقع اقدامه وحدوده ... بهاتين المرأتين او هذين (العكازين) ، واتته الجرأة فخرج الى العالم باوداج منتفخة تزعق في كل منعطف وزاوية ... هأنذا (زوج فلانة .. حبيب فلانة)..
وبهاتين (الفلانتين) كان يرى الى ظلاله وهي تسمن ، والى اضوائه وهي تعلو وتتوهج ، والى حدود اقدامه وهي تمتد وتتطاول ... وأخيرا ومن خلال اغفاءة ظهيرة ، يتسلل (آخر الخراف) ليجتث ويستأصل ويدمر ... هذا ـ والله ـ هو المستحيل .. انه عين المستحيل .

كاد الليل ان ينتصف ، ولم يظهر حامد ، فنهضت سعاد ثم

قالت .

ـــ : اهذه هي احسن خصاله كما تظن ..؟!!

وابتعدت عنه دون ان تنتظر جوابا واتجهت مسرعة الى الخارج فتبعها حائراً مرتبكا ثم قال ، وهو لا يصدق نفسه ...

ـــ : صدقيني ... هذه هي المرة الاولى ... صدقيني ... ويتوجب عليه ان يفسر سبب غيابه ويعتذر .

وعاد كمال الى بيته بسرعة جنونية حانقة ... كانت يده المتشنجة والناضحة بالعرق ، تنزلق على حلقة المقود ... وكان في اعماقه المعتمة شيء مجهول عاصف ، يتفجرّ ويعوي ويزمجر .

× × ×

جلسا وحيدين في حديقة النادي الواسعة والمبقعة بالاضواء الخافتة المتباعدة ... وفيما كانت سعاد تنظر الى وجهه الذي بدا مستويا صريحا بلا حواجز ولا حدود ، انحنى بجذعه نحوها فانعكس ضوء المصباح في حدقتيه ...

شعرت بمزيد من القلق والاحباط ، وراودتها رغبة مفاجئة بالفرار . عيناه لا تكفان عن الغوص الى اعمق اعماقها ، واسئلتهما الصامتة لا تكف عن التنقيب والتشريح ... من انت يا سعاد ..؟ ماذا تريدين ..؟

وسمعت نفسها تسأله بحذر ...

ـــ : الموقف الذي انتهت اليه بطلة مسرحيتك ... هل هو الموقف الامثل ..؟ وهل هو .. الترفع ..؟!

ـــ : انت تعلمين ولا شك ، ان (الترفع) هنـــا ، ليس معناه : الكبرياء أو الغطرسة ... انه ـ كما تراه البطلة ـ احساس بالجدارة ... الجدارة بالذات وبالمجتمع وبالحيـــاة ... والموضوع هنا ، لا يتناول صراعا فرديا هدفه الانتهاء الى غنائم أو مكاسب خاصة ... الترفع في موقع كهذا ، امتداد ومشاركة ، ضمن الكل والى الكل .

ارادت البطلة ان تبرهن لنفســـها : ان النزعات المجانية أو النزوات الطارئة ، قد لا تفضي الا الى سعادة شاحبة ، وقد تسقطها من ثم في مصيدة لا مخرج منها ... لقد احبت وآمنت بالحياة المديدة الحقة ورفضت حياة (اللحظات السعيدة) ، حياة (القلق والاستلاب) ولذلك رأيناها وهي تصمد ضد (الجزء) وتطمح الى (الكل) .

ـــ : ما علاقة المنطق الفردي أو الموقف الفردي بالمجتمع ..؟ هذه تفسيرات خاصة ليس من المحتم ان يتفق عليها كل الناس !!.

نظر اليها نظرة هادئة طويلة ثم قال ...

ـــ : انها تؤمن : بأن الذي يمزق قيم نفســـه ... يمزق قيم مجتمعه .

ـــ : وماذا عن (الجدارة بالذات) ..؟ هل تساوى ـ في رايها ـ الجدارة بالمجتمع ..؟

ـــ : هذا صحيح تماما ... لقد صمدت ، في صميمها ، ضـــد السهولة والانحدارات البدائية ... كانت تراهـــا مرحلة

دقيقة وصـــعبة ، وان التغلب عليها خطوة مكتسبة نحو الانتصار الذاتي والاجتماعي معا .

ختم حامد كلامه ثم التفت بعيداً ... كان يود لو تحدثت عن شيء آخر اكثر تلاؤما وجلستهمـــا المنفردة ، واكثر بســـاطة وحميمية وتجاوباً ... يذكر انه قد تحدث عن مسرحيته كثيراً ، وعن موقف البطلة كثيراً ... وكانت يومذاك تصـــغي ، خرساء صامتة ... وها هي الان تنفرد به وتصرّ على طرح القضية من جديد وبلغة مختنقة بالرموز والطلاسم .

والتفتت هي ايضا الى جهة بعيدة اخرى وقد اطبقت عليهـــا رجة ثقيلة من الاصرار والعناد ... لقد شعرت بضيقه وبعـدم احساسه لكنها ارادت وصممت على ان تصل الى نقطـــة ذات منفذ واحد ...

عادت وتطلعت اليه ثم قالت ...

ـــ : بالرغم من كل ذلك ، فالمسألة تبقى شبـــه استثنائية ... والمواقف بالتـــالي ليست مقتصـــرة على العقـــل والذكاء وحدهما ... العواطف ايضا لها أثر ودور وتأثير ... قد تسوق العواطف الانسان الى البؤس والخيبة ، وقد يفعـل (العقل) ذلك ... والانسان بعد هـــذا وذاك ، لا يمتلك نفسه ولا يسوسها ولا يسيطر عليها بمثـــل هذا اليســـر والسهولة .

نفث حامد دخان سيجارته بعيدا عن وجهها واجاب بهدوء ..

ـــ : لقد جوبهت البطلة بظروف وحالات متناقضة اتاحت لهـــا

فرصة الاحتكاك بالاوجه العديدة لاعماقها ، مما جعلهـــا تعتقد ثم تؤمن بأن (الانانية) وحدهـــا ، هي التي تبت" وتقرر ، في حالة (تنازع العقل والعاطفة) ، فيما لو افترضنا انهما نقيضان او مادتان مختلفتان ... ولقـــد قررت هي نفسها ايضا : ان العقل والعاطفة هما ليسا كل شيء ... والانسان كثيراً ما تجاوز هذين المؤثرين في ظروف وحالات كانت له او كانت عليه ... اما ما هي (الانانية) ، فقد تكون هي قوانين المرء المجهولة الخاصة ، أو نظام غرائزه السرية.. أو قد تكون عقدة العقد .

ـــ : اليست هي تلك (اللحظات الشاحبة من السعادة) أو أنهـــا (الجزء) ..؟

ـــ : لا ادري ... ولكنني اعتقد باننـــا ـ انت وانا ـ لابد وان صادفنا في طريقنا الكثيرين من اولئك الذين يعبدون حيـاة (اللحظات) هذه ... ولابد انك قد اكتشفت بانهم عنـــد سقوطهم في شبكة النتائج المعقدة ، يبدأون في ابعاد ذواتهم عن وصمة الغفلة والخطأ ، ثم ينهالون على الناس وعلى الكون كله باقذع التهم والشتائم والسباب . الاخطاء والبدائيـــة والغفلة ، لا وجود لها ـ حسب اعتقادهم ـ في ساحتهم ... انها عند الآخرين فقط .

غمرتها قشعريرة حادة ارعشت يدها التي رفعتها لتبعد عن جبينها خصلة شعر نافرة ... خيل اليها ـ وهي تصغي اليه قلقـة متوترة ـ بانه قد طرح نقيضها تماما ، دون ان يدرى ، من خـلال

مواقف بطلة مسرحيته ، وكأنه اراد ان يكشف لها ـ هي بالذات ـ عن اللون الذي يحترمه ويحبه ويستجيب له عند المرأة ، ثم يبدأ اخيراً ، فيحصرها في زاوية ضيقة مغلقة ويعتصرها بأسئلته الصامتة المربكة .

ابتسم لها فجأة بثقة وانفتاح ثم مد يده وامسك بيدها وقال.

ـــ : استطيع ان اقول : ان نموذج هذه المرأة ـ المطروح في المسرحية ـ ليس استثنائيا ، وليس حالة فردية او نادرة ... اننا نجده في كل ظرف وكل مكان وزمان ولكننا نتجاوزه ولا نلتفت اليه ولا نعير صراعه اي اهتمام او تقييم اضافي يتلاءم مع قيمته ودوره ... اما انا ، فلم افعل شيئا سوى ان ركزت المزيد من الاضواء عليه لكي انير ارضه المهملة واكشف حركته على حقيقتها ، لذلك ، فقد بدا للناس غريبا شاذاً أو مبالغا فيه على احسن تقدير ... انت مثلا يا سعاد : الا تشعرين بقربك من هذا النموذج او تعاطفك معه ، وانك قد تعرضت ذات يوم لحالات مشابهة او مررت بظروف مقاربة ...؟!!

سحب يده برفق ثم اشعل سيجارة وراح يدخن دون ان ينتظر جوابا ... كانت هيئتها وجلستها وتعابير الثقة المتجلية في وجهها والبريق الذكي المطل من عينيها ... هذه الصفات والعلامات الحية كانت هي الرد الاكيد والجواب المجسم الذي يراه ينتصب امامه بكل ما يملك الحياء والتواضع من نبل وثقة وبسالة .

نظر اليها من وراء سحابة دخانه ، فتجسدت له رحلته الطويلة

الزاخرة بنقاط التوقف والضياع ... نقـــاط التردد والالوان الزائفة ورياح الشك ومذاقات القنوط ... ها هو ذا ضوء آخر ، مصباح آخر يومض من بعيد ... أمل حي ينبض من بعيد ... وها هو يســـك بدفة قاربه الصغير ويتجـــه به نحو ذلك الامل والوميض .

همست له سعاد بصوت غريب ...

ـــ : اشعر ببرد شديد ... هل تريد ان نذهب ..؟!

× × ×

قال كمال لزوجته وهو يرتجف من الدهشة والحيرة ...

ـــ : اعيدي علي بالتفصيل كل ما قلته لي ... انا لا اكاد اصدق اذني ..!!

ـــ : لماذا لا تصدق ..؟ وما الغريب في المسألة ... جاء (الابله) قبيل ساعة وهو غارق في الماء والوحل ورائحة السمك ، ثم اعطاني سمكتين كبيرتين وقال « انه حظ سعاد وليس حظي» فلو لم تكن معي لما اصطدت حتى ولا ضفدعة ... ثم اخذ يرقص ويدور حول السمكبحركاته التهريجية المضحكة ويقلد اصوات الهررة والقطط ... هذا كل ما في الامر ...

ـــ : وهل كانت سعاد معه ..؟!

سأل ذلك والرعدة تأخذ بصوته ...

ـــ : طبعا كانت معه ..!! لقد جلست على الارض وراحت تتابـــع حركاته ورقصه وهي غارقة في ضحكها وسخريتها منه ...

ـــ : وخرجا سوية ..؟!!

ـــ : اتريدها ان تبقى هنا ، ورائحة السمك التي تملأ ملابسهـــا تبعث على الغثيان ...

ـــ : وهـــل كانت ترتدي قميصهـــا الازرق القصير وبنطلون « الكاوبوي » ؟

ـــ : وما شأنك !نت وما تلبس ..؟! نعم ، كانت ترتدي هـــذه الملابس ولكن ، هل لي ان افهم ، لماذا تسأل عن ملابسها ..؟! لم يجب على سؤالها ، وانما خرج وانطلق بسيارته كالاعمى.

× × ×

رغم خلو الشارع من المارة في هذا المساء الصيفي الخانق ، الا ان (الابله) اوقف سيارته في زاوية بعيدة عن بيت سعاد ... تناولها الكيس المليء بالسمك ثم نفخ صدره وحاول ان يقلد صوت الديك ... انتهرته بعنف واحتقار فسكت ... احست بالتعب يشل حركتها فاسترخت في مقعدها برهة وراحت تستعرض مسيرة يومها الصاخب ... الضحك من الاعماق ... القفز بعيدا عن الجلد ... الركض بعيداً عن شبكة الاعماق ... وتحركت لكي تهبط من السيارة ، فمد (الابله) اصابعه المحملة بالطين وقشور السمك ودسها تحت عنقهـــا ... انتفضت من المفاجأة فابعدت رأسها بغضب ثم تركت المقعـــد واتجهت نحو بيتهـــا دون ان تلتفت اليه .

× × ×

اتصل حامد (تلفونيا) ببيت كمال فلم يجده ، ثم تذكر بأنه

لابد وان يكون الآن في النادي ... وكان كمـــال ـ على غير عادته ـ يجلس في زاوية بعيدة من الحديقة ، نصف مظلمة ، وقـد تناثرت حوله اعقاب السيجاير واعواد الكبريت ، وخلت مائدته من كل شيء عدا علبة الشخاط الفارغة .

فوجيء كمال بحضور حامد غير المتوقع فاغتصب بسمة واهنة ثم قال بهدوء مصطنع ...

ـــ : هذا غريب ... انت هنا ..؟ وبلا مقدمات ..؟!!

وظل ينظر الى حامد بدهشة وفضول وقد توجس شيئا ، في ما اتخذ حامد مجلسه امامه وقال ...

ـــ : اتصلت بك في البيت ولم اجدك فجئت الى هنا ... والان ، وقبل ان استريح ، ما رأيك لو قضينا الســـهرة في بيتي ، وحول مائدة دسمة عامرة بدلا من هذه المائدة البائسة التي لا تستر عورتها الاشخاطة فارغة ..؟!!

ـــ : كلا يا حامد ... انا اليوم ، لست وفق مزاجي ... دعنا في مكاننا ... تجاهل حامد سوء مزاج كمال الذي لم يكن حدثا جديداً عليه وقرر ان يطرح عليـــه بعض الاسئلة التي تشغل ذهنه لينتهي من ثم الى موقف جلي وواضح ... مال نحوه وقال بنبرة جادة هادئة ...

ـــ : اسمع يا عزيزي كمال ... لا ادري ان كنت قـــد اتيت في وقت قد لا يسمح بحديث شخصي ، ولكن،بالرغم من ذلك، فان لي ثقة كبيرة بانك ستصغي الي وستشاركني موقفي بجد واهتمام .

انت يا اخي كمال (صديقي) ، ولا احد يعرف كنه حقيقتي كما تعرفها انت ، ولذلك ، فان ثقتي بك وبرأيك وبحكمك لاحدود لها ... انني ، قد يحدث واغش نفسي او اكذب عليها او اخونها . لكن انت ... انت لا تفعل ذلك معي ، ولا تسمح لنفسك حتى بمجرد التفكير بموقف كهذا معي ، ومعي انا بالذات ، لانك تملك ـ كما اعتقد ـ من نقاء الضمير ونبل الاخوة وعراقة الصداقة ما يزكيك ويبعد عنك كل شبهة او شك ...

استغرب كمال لهجة حامد ، فقاطعه وقد ازداد توجسه ...

ـ : لا حاجة هناك ، تدعو الى مثل هذا الكلام وهذه المقدمة يا حامد ... انك لست صديقي فحسب ، وانما انت اخي ، بل واكثر من اخي قربا وتلاحما ، وسعادتك هي سعادتي .

ـ : اذن ، سأقولها لك بصراحة واختصار يا عزيزي كمال ... الذي ارجوه فقط ، هو ان تجيبني بصراحة واختصار ... ما رأيك في سعاد ...؟!!

اعتدل كمال بجلسته ثم اخذ يحملق في وجه حامد كالمأخوذ وهو لا يصدق ما يسمع ... هذا هو (آخر الخراف) ، جاء اخيراً ليؤكد بنفسه صدق الاقاويل والاشاعات التي زكمت انوف رواد النادي .. هه .. هه .. هذا جميل والله ... حامد وسعاد ... « دوحه وسوسو » ... لست ادري ، هل جنت الارض وما عليها، وهل اعوجت القيم والمفاهيم ؟!

... وشمله بنظرة ازدراء ثم افتعل في صوته كل هدوء وبرود ...

ـــ : رأيي في سعاد ...؟ ومن أية ناحية ...؟!

ـــ : من كل النواحي ... انت وهيفاء تعرفانها معرفة عميقة ... الفتاة ـ كما اعتقد ـ قد تتكلف بسلوكها وتتقيد برغباتها امام الناس الغرباء ، بل وتنطوي ايضا ، حتى امام اهلهـــا وذويها ... أمّـــا امـــام من تثق بهم وتطمئن اليهم من (الاصدقاء المخلصـــين) ، فتنطلق وتتحرر وتكشف عن دخيلتها وحقيقتها بكل يسر وعفوية وبساطة ... ولهذا فأنا احتاج الى رايكما (معا) وبكل ما تملكانه من موضوعيـــة وحياد وامانة .

ادرك كمال ، جدية وخطورة ما يرى وما يسمع ، وان المسألة ليست مسألة اقاويل وتكهنات ... وان هذا المتجهم المغرور الذي جاء واسلمه كل (ثقته) ، قد شرع ينميّ في تربته القاحلة نبتة وهمية من الامل والفرح والاحلام العريضة ... وتذكر ـ وهو يتأمله ساخرا ـ ان (الطعم) في يده و (السم) في يده ... وليس في يد سعاد غير الخيط والشص ، فلم لا يتريث قليلا ولا يكشف عن حقيقة موقفه ورأيه ... ولم لا يستند الى ثقته الهائلة بنفســه وبوسامته التي لا منافس لها ، ويحوّل كل هذا (الجد والتجهم والغرور) الرابض امامه ، الى (نكتة) مخبولة وفكاهة عريضـة شاسعة يضحك لها الجبل وتمتد بالضحك الى احفاد الأحفاد ..!!

اصطنع في نبرات صوته ابلغ الوان البراءة والجد والحماس، ثم جاهد واصطنع « اللعثمة » والحياء ، في مناورة محكمة هدفها

النفاذ الى قعر دخيلة حامد ، والوصول الى حقيقة خططه وامانيه ، ثم قال ..

ـــ : لن يضيف رأيي شيئا جديداً او حيويا الى آراء كل الناس وكل من عرف سعاد من قريب او بعيد ... ان سعاد ، ياأخي حامد « رائعة » ... اما رأي هيفاء ، فكنت احب لو سمعته من فمها هي ... ولكنك تستطيع ان تستنتج حقيقة دامغة واحدة وهي : لو ان هيفاء قد لمست عند سعاد خلة معيبة او صفة شائنة ، لما سمحت لها ولا لمجرد خيالها بالدخول الى البيت ... انت تعرف جيداً ، كيف هي حساسية هيفاء بالذات ..!!

ارتسمت على وجه حامد اشد معالم الاطمئنان الى نزاهة صديقه وحياده النبيلين ، ولكنه سأله بلهجة حائرة ...

ـــ : ولكن ، لماذا لم تتزوج حتى الآن ..؟ هل هناك ثمة عقبة..؟!

رد كمال بنبرة شبه ساخرة ...

ـــ : لعلها تبحث عن « الند » ... هذه كلمتك انت اليس كذلك ..؟!!

ـــ : « الند » ..؟! ماذا تعني بذلك يا كمال ..؟!!

ـــ : « الجدارة » ... وهذه ايضا كلمتك انت ... لو سألها احد عن عدم زواجها لحد الآن ، لاجابته بجملتها الشهيرة .. « لم اجد بعد ، الرجل الجدير بي » .

ـــ : هذا غريب حقا ... كل هؤلاء الرجال الذين تحتك بهم داخل

نطاق عملها وخارجه ، ثم لم تجد واحدا منهم جديراً بها ..؟
هذا أمر غريب ومحير ... ولكن ما النتيجة ..؟؟

ـــ : ما النتيجة ..؟ لا احد يعرف ما النتيجة غيرها هي ... يخيل لي احيانا ، اني اراها واقفة على قمة تل مرتفع وهي تنظر الى قطيع (الخراف) المتحرك تحتها فلا تجد من يملك الارادة الكافية والقيمة الجديرة بالتسلق والصعود .

ـــ : اتعتقد انت بهذا حقا ..؟!

ـــ : أنا لا اعتقد ، بل أخمن فقط ... فاذا تصـــورنا ان امرأة لديها كل هذه الصفات الجيدة ـ ولا اقول الفذة ـ ثم نراها لم تعثر على « رجل جدير بها » فذلك يعني ان نقطة الضعف أو الخلل موجودة في الرجال الذين حولها ، وليس فيها .

صمت حامد قليلا وأخذ يستعيد بذهنه كل الاسئلة الملحـة التي طرحتها حول قيمة « السعادة كلحظة » وعن ذبذبة الانسان وتردده بين « العقل والعاطفة » ، فدهش لتطابق الموقفين بين بطلة المسرحية وبين سعاد ... ترى ، هل حدث ومرت سعاد ـ عبر هذا المحيط الذي تتواجد فيه ـ بتجربة حصار خلقي ، وانها عاشت مواقف رفض وترفع كما عاشت بطلة المسرحية ..؟!!

ـــ : هل تستطيع يا كمال ان تخمن حالات او ظروف (التجارب) التي أدت بسعاد الى رفض الزواج طوال هذه المدة ..؟

تجاهل كمال تلميح حامد الى (التجارب) وظل متشبثـــا بمظاهر سذاجته وبراءته المصطنعة ...

ـــ : قلت لك انها وجدت نفسها ـ بحكم عملها ـ تحتك بنماذج

وعقليات وانماط مختلفة من الناس ... وعن طريق هـذا الاحتكاك ، انتهت الى موقفها من الرفض والعزوف ... اما (التجارب) ، فهي لا تعـدو عن كونها ، تجارب لعقلية المحيطين بها ، واختبارات محضة لسلوكهم ومنطقهم ازاء الخاص والعام من الامور ، حيث انها ـ كما يبدو ـ لـم تمتليء او تقتنع بأية جهة من هاتين الجهتين ... قالت لي ذات مرة : « ماذا افعـل انا ، وكل من التقي به لا يصلح لزواج ولا الى أي شيء آخر » ..!!

ـ : وما هو هذا (الشيء الآخر) ..؟!!

فوجيء كمال بالسؤال فارتج عليه وسارع فأضاف تعليلا مرتبكا ...

ـ : تقصد : الاهتمامات والهوايات التافهة ...

ـ : انها ، قد تكون محقة في مسألة (السلوك) ، اما (العقليات)، فمن الصعب والغريب ان تحددها وفق منظورها او مزاجها الخاص ، هذا ، اذا ما افترضنا بانهـا لا تريد ان تتزوج (عقلية) صرفة ..!!

ـ : على أية حال ، هذا هو رأيها ومنطقها ، وهي مقتنعة به تماما ، فأن اعتبرت قضية (عمر وحياة) فالخسارة بالتأكيد ، عليها وحدها .. ومهما كان الامر ، فهي ليست ساذجة ولا غبية .

ـ : هذا جائز ... ولكن الموقف كما يبدو لي ، اكثر تعقيداً مما يدل عليه مظهره ... فتاة مثل سـعاد ، لا يمكن ان تعالج حياتها بمثل هذا البرود واللامبالاة ما لم يكن في حياتها سر

خفي قد تسترت عليه ببراعة وذكاء .

اضطرب كمال قليلا ثم تساءل بقلق وسرعة ...

ـــ : سرّ خفي ..؟ ماذا تقصد بحق الله ..؟!! ما هو هذا السر الخفي ..؟!!

ـــ : حب يائس مثلا ... اكتفاء سرّي ..!!

انتفض كمال دون وعي وارادة ثم رفع يده عاليا وكأنه يريد أن يسكت حامد بالقوة ، ولكنه عاد واسقطها الى جنبه،وصاح...

ـــ : مهلا ... مهلا يا حامد ... لقد ذهبت بعيدا جداً في استنتاجاتك وظنونك ... المسألة كما افهمها ، تشرح نفسها كالآتي : اولا ، ان الحب كما تعلم ، ليس شيئا غريبا او محرما على سعاد او أية فتاة اخرى ... ولو حدث واحبّت ، لبادرت هي نفسها قبل الاخرين الى اعلان هذا الحب دون اي تردد او خشية ... انت يا عزيزي ، تجهل ذهنية سعاد وتجهل طريقة تفكيرها وتجهل جهلا تاما ابعاد جرأتها وتحررها ... ثانيا : لو انها احبت ثم خابت وفشلت في حبها ، لاعلنت ذلك ايضا بكل بساطة وبرود ، ولكشفت في الوقت ذاته ، ودون ان تعلم ، عن لون وماهية الرجل الذي اختارته ... وما دامت قد اختارت واحبت ثم فشلت ، فلابد من ثم ان تبحث عن رجل آخر بديل آخر .. او قد تجد في طريقها رجلا آخر يتفوق بخواصه على حبيبها الاول فيمحي ظلاله وآثاره وينتهي الامر ، ان كانت قد عقدت النية على البحث فعلا ... ان قولها المعروف « انني لم اجد الرجل

الجدير بي بعد » يعنى انها لم تعرف الحب بعد ... بقيت نقطة ثالثة لم افهمها تماما ، وعليك انت ان تفهمني اياها ... هل لك ـ بحق جهنم ـ ان تشرح لي ، ما معنى (الاكتفاء السري) هذا ..؟!!

ما ان انتهى كمال من كلامه حتى اسرع واخرج منديله الفاخر ثم اخذ يمسح سيول العرق التي غمرت وجهه وعنقه ... لقد ادرك بأنه قد انفعل وتسرع وراح يهرف في بداهات ويستخلص استنتاجات لم يكن من حقه ان يبت بها او يعتبرها في حكم الحتم والواقع ، وان الرجل الجالس امامه ، والذي يصغي اليـــه بانتباه وتركيز شديدين ، ليس غراً ولا مغفلا ... كيف افلتت من لسانه جملة « ان كانت قد عقدت النية فعلا » ... من ادراه انها لم (تعقدها) ، وانها لم تبحث عن الحب بجد ..؟ ومن ادراه انها لم تجد الرجل (الجدير) بعد ، والذي يمكن ان تجده في (آخر الخراف) أو في غيره ..؟! ترى ، الا يعكس سلوكها الجديد ـ في نظره ـ شيئا جديداً ..؟!!

تفرس حامد في وجهه طويلا ثم اجابه بحزم وهدوء ...

ـــ : اتعرف ذلك اللون من العلاقة الغامضة التي تنعقد بين امرأة وامرأة ، أو بين فتاة وفتاة ..؟ ذلك هو (الاكتفاء السري). ان فتاة مثل سعاد ، وبمثل حيوتها وزخمها ، وفي مرحلة من العمر كمرحلتها ، يكون من المستحيل عليهـــا ان تكتفي بالوقوف في منطقة الاحلام فقط ، او النظريات فقط ان لم يكن قد اسرها حب عنيف يائس لا بديل لاي رجل آخر في

مكانه ... أو انها سقطت في تجربة حب تافه ، مع رجل تافه ، دفعها الى كل هذا الرفض والتعنت والجمود والحساسية ... هذا من جهتها ، اما من جهة الرجال المحيطين بها ، فالذي لا شك فيه ، ان الكثيرين منهم قد يتحاشون الاحتكاك (جدّيا) مع فتاة معروف عنها ، انها محتجزة وراء عواطف مسبقة عنيدة قد تعميها عن كشف حقيقة (عقليتهم) أو جوهرهم او قيمة اهدافهم في الحياة .

ان الاحتكاك الجدي الصادق الذي ينتهي الى الرفض ، ثم الخيبة ، شيء جارح ومذل قد لا يرتضيه الا مخادع او عابث ... لو كنت انا احد هؤلاء ، لتوجست كثيراً وحسبت لكل خطوة حسابها ... ان الرفض ـ كما تعرف ـ شيء مدمر وقاتل ، مهما اختلفت صوره او مبرراته ، ولذلك تجدني كثير الحيطة والحذر ، كما تجدني شديد الاصرار على معرفة رأي هيفاء ذاتها ، لكي اخلص بعد ذاك الى موقف واضح ومحدد ... هيفاء حساسة وذكية جداً ، كما انها ذات فراسة صائبة ... وكما يقال : لا يعرف سر المرأة ، الا المرأة .

أحسّ كمال بقلق عميق جارف ، فاخذ يفكر : من يدري ..؟ قد يصحّ ذلك ... قد يصحّ وتكون سعاد اسيرة عاطفة غامضة ، وقد لا تكون ... ما هذا الذي اسمع ، وما هذا الذي يحدث ..!؟ ترى ، هل كتب عليّ ان اقارع واقاتل منافسا خفيا لا اعرف شكله ولا حركته ولا مكانه او زمانه ..؟ وهذا المغرور العبوس المنتصب امامي ... الى اين يريد ان يصل بفلسفته هذه ..؟ وما هو هدفه

الاخير من وراء كل هذه الاسئلة ...؟! هل يريد أن ...؟ ولم يجرؤ على تكملة الجملة التي جالت في خاطره ... وكاد ان يصيح او يصرخ ، غير أنه سارع الى الهرب من شبكة افكاره المعتمة ثم قال ...

ـ : هيفاء لا تخفي عني شيئا ابدا ... كما ان سعاد لا تخفي عن هيفاء شيئا ، لانها ليست صديقتها فحسب ، وانما هي كاتمة سرها ... كن على ثقة يا عزيزي حامد ، من ان هيفاء لها القدرة على معرفة ادق مشاعرها وخوالجها الطبيعية ... اما العوالم الباطنية والاكتفاءات السرية فلا ادري ماذا اقول عنها .

ـ : اسمع يا اخي كمال ... لابد وانك قد سمعت بأنني مرتبط مع سعاد بعلاقة معينة ... واحب ان اضيف : بأن هذه العلاقة ، اكثر عمقا وامتدادا مما يتصورها الناس ... نعم ، جلست معها وحاورتها واختبرتها ، فكانت كما قلت انت « رائعة » ، بل واكثر من رائعة ... لقد امدتني بأمل وتفاؤل ومشاعر لم اعهدها في نفسي من قبل ... وجدتها تشاركني كل ما اطمح اليه وما افكر فيه ... وقبل ايام اردت أن افصح لها عن حقيقة مشاعري نحوها ، لاتيح لها فرصة المشاركة والبت في الامر سوية ، لكنني ارجأت ذلك في آخر لحظة لكي اقف على رأيكما الصريح ، انت وهيفاء .

كان كمال يصغي فاغر الفم جامد الجلسة زائغ البصر ... وكان يبذل جهدا جبارا في كتم مشاعر المرارة والغضب والحقد

التي كانت تحتدم في دخيلته ... هل ان ما يسمعه اســـطورة مضحكة ومميتة ، ام ان الصدفة وحدها هي التي جاءت وطرحته ممزقا بين خرافتين راهنتين ، وفي غمرة يوم واحد ... « الابله » و « آخر الخراف » ...؟!! وزفر زفرة طويلة ثم تناول جرعة كبيرة من الماء وسأل بصوت اجش ...

ـــ : منذ متى وانتما تلتقيان سوية ...؟

ـــ : منذ اربعة اشهر تقريبا ... لماذا ...؟!

ـــ : لا شيء ... اردت فقط ، ان اعرف المدة الزمنية التي جعلتك تفهمها وتثق بعواطفها ومشاعرها نحوك كل هـــذا الفهم والثقة ...

ـــ : انها مدة كافية كما ترى ... ليست بالقصيرة التي تسوق الى الارتجال والاخطاء ، ولا هي بالطويلة التي تدعو الى الملل واليأس ... انه زمن يكفي ـ كما اعتقد ـ لفهم اي انسان طبيعي يتعامل مع الناس معاملة صريحة وطبيعية ، اما اولئك الذين يتسترون وراء الاقنعة ويراوغون ويخاتلون ، فمن الصعب ان تنفذ الى مـــا وراء جلودهم ودخيلتهم ، او ان تكشف نواياهم .

ـــ : هل افهم من كلامك ، بانك تشك بوجود (قنـــاع) فجئت تسأل عن رأي هيفاء ...؟!!

ـــ : ليس تماما ، يا عزيزي كمال ... الامر هنا ، لا علاقة لـــه بالاقنعة ... انني كما قلت لك ، احسب لكل خطوة من

خطواتي حسابا ، واحاول ان افهم ما حولي فهما صحيحـــا وبعيداعن مبالغات العواطف او المشـــاعر ... ان عواطف الاخرين الحامية او اندفاعاتهم الحادة ، قد تشـــكل اساءة بالغة او خطرا جديا اذا افتقرت الى منطق الرؤيا الواعيـــة الحقيقية لواقع الحاضر واحتمالات المستقبل ... القضية هنا قضية (اختيار) لمسيرة حياتية طويلة ومصـــير مشترك ، وليست (اعجـــابا) مجردا ... الانسان اذا ما قرر ثم (اختار) بكل ما يملك من ارادة ويقظة ومنطق غير مرتجل، ثم تجده بعد هذا (الاختيار الواعي) قد نكص او تحول الى موقع آخر ، مهما كان شكله او لونه ، فأنا اعتبر هـذا التحول (خيانة فكرية) لا تقـــل عن (الخيانة الجسدية) قذارة وبشاعة واذلالا ... الرجل او المرأة ، في حالة كهذه ، لن يخون شريكه فقط ، بل يخون نفسه ويذلها قبل كل شيء ... الجانب (المرئي) من سعاد ، يمكنني ان اقول عنه : انني خبرته وفهمته وتقبلته ، على قدر كمية الابواب التي فتحتها (هي) بذاتها امامي (فكريا وعاطفيا) ... اما الابواب الخفية او السرية (وكلنا نملك هذه الابواب) ، فسأترك فهمها وشرحها لفراسة هيفاء وذكائها ... واكرر : لا ينفذ الى سر المرأة الا المرأة .

ظل كمال صامتا فترة طويلة ثم قال بصوت هامس اجش ...

ـــ : حسنا يا حامد ... سوف نرى هيفاء وتسمع ما تقوله ... واعتقد انها صريحة الى درجة الصفاقة والقبح .

× × ×

دخلت سعاد الى بيتها دون ان تلتفت يمينا او شمالاً ، ودون أن تعير أية اهمية لنظرات ذويها المبهوتين ... القت كيس السمك جانبا ثم نضت عنها ملابسها المليئة بالطين والقش والعرق ورائحة السمك ودخلت الى الحمام ... وقفت امام مرآة جدارية كبيرة وراحت تتأمل عريها ... تصاعدت الى انفها رائحة عشب حامزة جعلت ضربات قلبها تزداد سرعة وحرارة ... شـــعرت بحكة في ركبتيها ، ولمـــا مدت اصـــابعها ، تلوثت بلون العشب الطري الاخضر ... غمرتها مياه (الدوش) الباردة السخية فعبقت ثانية رائحة العشب الحي ، حيث ارتسمت امام بصرها رقصات الظلال والاضياء السمينة المعزولة عن الضجة والفضول ، وتشممت ثانية ، رطوبة المساء والنسيم الفاتر ، ورأت الافق المضبب بابخرة الشمس البرتقالية المنحدرة نحو المغيب ... واخذت تصغي ، الى وشوشة رذاذ (الدوش) وهي تمتزج بدمدمة مياه النهر العميقة التي كانت تهدر بالقرب منها ... وتجلى في ذهنها مشهد عناد الاســـماك الصغيرة الساقطة في الشبكة ، وهي تقاتل قدرها ومصيرها ثم تنهار عاجزة وملوثة في مياه الدم والطين ... دلكت جسدهـــا وربتت عليه وهي تدمدم ساخرة « للاسماك الصغيرة ايضا .. عناد وقتال وقدر يا أم الجدارة والترفع ..؟؟ » .

خرجت من الحمام بجسد نظيف مشرق ومستنزف ، وكانت الموسيقى الخفية المنبعثة من مساماته المتفتحة ، قد حولته الى طيف هلامي شفاف يتراقص على خفقات رقيقة من اللذة والفرح المبهم ..

انسلت طائرة الى غرفتها وتناولت غلالة هفهافة شفافة ولفت بها جسدها الرطيب ثم انطرحت على بطنها وغابت في نوم ناعم عميق .

× × ×

هجم كمال على زوجته دون مقدمات ...

ـــ : ماذا تقولين لو عرفت ، ان حامد يريد ان يتزوج سعاد ..؟!!

اجابته زوجته ببرود ، ودون ان تعبأ بلهجته المحمومة ...

ـــ : كنت اتوقع شيئا من ذلك !!. لقد حدثتني عنه كثيرا ، لاسيما في الايام الاخيرة ... ان الفتاة التي تلح ونسرف في حديثها عن رجل ما فذلك يعني انها تحبه ... لم يسقط هذا الرجل من طرف لسانها لحظة واحدة ، حتى خيل لي بأنه لا يعيش بين الناس ، بل يعيش في لحمها ودمها ، في صميمها ... واذكر انها قالت لي ذات مرة ، « الاصوات .. تلك الاصوات الغامضة .. حتى النبرات.. هل يحدث ويمكنها ان تلاحق الانسان حتى في احلامه ..؟! ان اصواته تلاحقني .. تطوقني يا هيفاء » ...

ـــ : هكذا ... هكذا اذن !! وماذا عن حامد ..؟ ما رأيك انت فيه ..؟!!

ـــ : حامد ..؟ انت اعرف به مني ... ولكنه ـ كما سألتني عن رأيي ـ كفء لها ، ان لم يكن اكثر منها كفاءة ... انا ارى، ان هذه هي فرصتها الحقيقية يا كمال ، ان كانت واثقة تماما من صدق موقفها واحاسيسها ونواياها نحوه .

تساءل كمال بصوت شبيه بالصراخ ...

ـــ : ولكنك تعرفين جيدا ، انها فتاة ذات نزوة ومزاج ... الا يمكن ان تكون احاديثها عنه ، جزء من هلوساتها ومزاجها الاندفاعي ..؟!

ـــ : كلا ... انا متأكدة من ان عواطفها هذه ، ليست نزوة ولا اندفاعا ... لقد رأيتها ممتلئة به الى حد الهوس والذهول .. قل لي : ألم تلاحظ انت نفسك ، ذلك التغيير الشامل الذى امتد الى اسلوب حديثها برمته ، وليس الى طريقة ملابسها فحسب ..؟!

لماذا تنقلب الفتاة كل هذا الانقلاب ، ان كان الرجل الذى امامها لا يعنيها في شيء ..؟ ولماذا يعتريها كل هذا التغيير (النفسي) عندما تجمع الصدفة بينها وبينه في لقاء عابر ..؟!!

ـــ : وهل تتصورين انها يمكن ان تهجر كل هذا الانطلاق والتحرر اللامحدود والاماني الكبيرة ..؟ تقامر بكل ذلك وتخسره عن طيب خاطر ..؟!

ـــ : انك تتخيل وتبالغ في اشياء وهمية لا وجود لها ... من قال لك انها ستفقد كل ما ذكرته..؟ وانها تقامر ، وانها تخسر..؟! ما الربح الذي حصلت عليه حتى الآن لكي نعتبر اقدامها على الزواج مقامرة وخسارة ..؟ على أية حال ، سعاد ليست غريرة او ساذجة ... انها تعرف تماما ، اين هي مواقع سعادتها وطموحها ، واين هي مواقع الربح والخسارة ... انا امرأة مثلها يا كمال ، ولهذا استطيع ان اجزم بأن المرأة

التي تعثر على زوج كفوء ، تعثر على نفسها هي ، وتعثر على انطلاقها وحريتها الحقيقيين ... الحرية ليست في الاحلام ولا في الاوهام ، ولا في التمرد والشذوذ ... انها ـ بكل بساطة ـ هنا ... في البيت ... وبين الرجل والمرأة .

صاح كمال ، نافد الصبر ...

ـــ : حسنا ، حسنا ... وقبل ان تتعرف على حامد ، ماذا كانت تقول لك ...؟:

ـــ : كانت كما تعرفها انت وتعرف لازمتها القديمة التي ترددها في كل موضع ومكان : « لم اجد الرجل الجدير بي بعد » .

صمت قليلا ريثما انتهى من قضم اظافره ثم سارع متسائلا..

ـــ : انها لم تعد تكثر من زيارتنا كما كانت من قبل ... فمتى جاءت آخر مرة ...؟!

ـــ : لا اذكر متى ... ولكنها جاءت منذ مدة بعيدة ثم جلست صامتة على غير عادتها ... لا حركة ولا صخب ولا مزاح .. لقد لفت نظري ، قلقها وشرودها الشديدان ، فقلت لهـــا مداعبة « هكذا الحب والا فلا ... وليرحم الله جدتك ليلى العامرية » ... ابتسمت لي بسمة شاحبة ثم حولت الحديث الى موضوع آخر ... وكنت اقول لنفسي لابد وان لهذا الشرود علاقة بأخينا (حامد) ، ولابد انها مقدمة على خطوة دقيقة وحاسمة في حياتها .

× × ×

حاول حامد ان يكتب فصلا آخر من مسرحيته الجديدة ، فلم

يستطع ... وجد أن ابطاله الجدد قد اخذوا يسحبونه الى مواقف وحلول لم يفكر بها ولم تخطر على باله قط ... وجدهم ، وكأنهم قد تباعدوا عن رؤاه وتصوراته ثم اسلموا مصائرهم الى قوة خفية قاهرة .

طوى اوراقه ثم نهض وفي قلبه حنين عارم لرؤية صديق يشاركه احاسيس الفرح والسعادة التي ما انفكت تعتمل في صدره بشكل غامض ... تذكر وهو يغادر بيته ، مكانا قديما ، كان يطيب له ان يزوره بين حين وآخر فقرر ان يذهب اليه لعله يجد هناك بعض اصدقائه فيقضي معهم سهرة دسمة صاخبة .

وجد المكان شبه خال ، فسار في الحديقة الصغيرة المطلة على النهر وجلس في ارجوحة منعزلة ثم اشعل سيجارة واخذ يجتر مذاقات افراحه واحلامه العريضة .

كان النهر الهادىء ينساب امامه ، عميقا معتما ، وكان لسان النار المشتعلة في الضفة الاخرى ، ينعكس على صفحة المياه كثعبان خرافي من النحاس المتوهج ، ليضيء الاحراش القطرية الكثيفة الممتدة على ساحله المتعرج البعيد ... وكانت ضجة الموسيقى الراقصة ، تنهال عليه من وراء ظهره ، في اعنف ضرباتها تارة ، وتارة اخرى ، تتسلل اليه ناعمة رقيقة هامسة ... ومن بين فترات الهمس والسكون ، كانت تترامى اليه صرخات السكارى وقهقهاتهم ولعناتهم ، فيضحك وحيدا مع نفسه ويود لو يترك مكانه المنعزل وينتقل الى مكان لهوهم ومرحهم ... وكان برنامج (الكاباريه) في اوج تفتحه وحيويته ، وكانت اقدام الراقصات تدك الارض ،

ومن حولهن يتعالى الصفير والزعيق والآهات فترتطم بالشـــاطىء الآخر من النهر العريض •

اكمل كمية شرابه وارسل على كمية اخرى ثم استسر يشرب بنشوة غامرة وانشراح ••• ولم يشعر بمضي الوقت ، وحين نظر الى ساعته ، تمتم بدهشة : ها هي الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل ••• من المستحيل ان يأتي في وقت كهذا ، واحد من هؤلاء الملاعين ••• كم كنت اتمنى لو كانوا معي الآن ، لكي تتمتع سوية بمشاهد حوريات هذا المرقص السمين ••• لكن الوقت قد تأخر ، ولن يأتي احد ••• سوف انتقل الى هناك واتمتع وحدي ، وعلى اصلاب امهاتهم كل لعنات الراقصين والراقصات والمخمورين والمخمورات •

امتد الى رأسه مزيد من الثقل الخدر ، واحتوته نشـــوة عميقة اخرى جعلت اقدامه تهتز متجاوبة وايقـــاعات الموسيقى العارمة المنقضة على ظهره ثم دفعته الى الحركة والنشاط •

نهض متثاقلا مرحا واتجه نحو الدرجات القليلة التي توصله الى صالة (الكاباريه) الصيفية ، ثم جلس على طاولة قريبة من حلبة الرقص وطفق يحملق فيما حوله بلذة وسعادة •

قدمت الفرقة النسائية الاجنبية آخر رقصاتهـــا المتهتكة ثم انسحبت ، وبقيت الفرقة الموسيقية وحدها وهي تعزف ايقاعاتهـا الثائرة وتغري الرواد باشعال النيران في دمائهم واعصابهم ••• ولم تمض برهة وجيزة حتى هجم جمع من الرجال والنساء على الحلبة ثم التحموا برقصة جماعية صارخة •

ظل حامد يتلفت حوله ، في محاولة يائسة للعثور على احد اصدقائه أو معارفه التائهين وراء منتصف هذا الليل ، فلم يعثر على احد ... وكان كلما اوغل في شرابه ونشوته وخدره ، ازداد شوقا الى تفجير ما يجيش به صدره من فرح واحلام ، حين يئس من العثور على رفيق مؤنس من بين كل هذا الحشد من الوجوه والاجساد ، عاد الى نفسه من جديد وهو يتمتم بخيبة وسأم : يا اخي كمال .. الفرح الكبير الدفين في الاعماق . ثقيل على القلب والعصب ... ثقيل ومرهق كالالم الكبير ... فرح يريد ان يرقص وينتشر ويزغرد ، ولا من مشارك ، ولا من مستجيب ... وهأنذا وحدي ، وها هو ذا فرحي الحبيس يضج بصراخه واحلامه ورؤاه ولا صديق ولا جليس ... فأين انت مني يا كمال ..؟!

انتزعته من تمتماته فجأة ، ضجة موسيقية اخرى ، فاعتدل بجلسته وراح يتابع سيلا جديدا من الراقصين والراقصات وهم يتدافعون نحو الحلبة وقد حشدوا آخر ما تملكه اجسادهم المرهقة من حيوية ونشاط ثم ذابوا في رقصهم الهستيري العنيف ... رأى الاجساد المتوفزة الساخنة وهي مندمجة في حركة آلية غريبة ... تستقيم مرة ثم تنحني وتعود لتستقيم وتنحني على شكل زاوية قائمة ... اما الايدي المتشنجة ، فممتدة على طولها خلف الظهور ، في حين كانت الذقون الناضحة بالعرق والمساحيق تقترب من بعضها البعض فتحتك وتعوي وتهمس وتهمهم ، ثم تفترق على اثر ضحك شبيه بالعواء .

كانت سحابة رمادية تضبب بصره المتنقل بين زحمة الاجساد المتلوية والالوان الصارخة ... وما ان انقشعت السحابة وصفا بصره حتى تجلت امامه « تنورة » خضراء ملتفة حول عجيزة هائلة رجراجة كانت ترتعش وتهتز على ضربات الطبل الكبير يمينا وشمالا بسيطرة وقدرة فائقتين ، خيل اليه ، انهما تفوقان قدرة البشر أو الشياطين .

لم يسبق له وان رأى (المايكروجوب) عن كثب ، وعلى مثل هذه المسافة ، وتحت كل هذه الاضواء الحادة الساطعة ... اندلعت امامه فجأة ، هذه القطعة الحريرية الصغيرة من (القماش) كما تندلع موجة جبارة عاتية في وجه صخرة راسخة آمنة ، فتقتلعها وتطوح بها بعيدا حتى القمر ... التفت دون وعي نحو طاولة مجاورة وصاح (اهذا هو المايكروجوب اذن ؟!) ولما لم يسمع جوابا ، عاد والتفت بسرعة نحو حلبة الرقص ، فداهمته « التنورة الخضراء المايكروجوب » ذات (العجيزة) الهائلة وهي تنفجر امام وجهه الذاهل باقصى ما تملك من شراسة وزخم وتحد واجتياح .

التهب جسده وغلت في شرايينه دماء الرغبة الكاسحة فأرسل على كمية اخرى من الشراب واستمر يحملق في « التنورة »الخضراء الثائرة ... وحين هبط بنظره الى حافتها السفلى ، ومض امام عينيه بريق (فوسفوري) من العري الشفاف ، عري لزج املس ، يهبه ثعبانان من اللحم الغاضب المتقد ، وهما في سورة حامية من التباعد والالتحام .

صعد ببصره الى حافتها العليا ، فبدت له فسحة رحبة اخرى

من العري النازف بالعرق ، تتوسده (كفان ضختان) كانتا تنزلقان فوقه وكأنهما تنزلقان فوق ظهر سمكة محاصرة ... ارتفعت الكفان قليلا عن سطح الجلد المشع ، فاندلع (المايكرو) ثانيـــة في نوبة هستيرية من الارتجاف العصابي الشره ...

ضربته في معدته موجة غثيان حادة ولكنه ظل يواصـــل التحديق ومطاردة « التنورة » اينما حلت ، ولما اشتد احساسه بالغثيان سارع الى دورة المياه ثم عاد مترنحا شاحبا وشد بصره الى (المايكرو) من جديد وقد تجرد من ارادته وتجردت من حولـــه كل المرئيات ...

صمتت ضجة الموسيقى بغتة ، فخيم على الرواد صمت عميق لم تقطعه سوى ضربات اقدام العائدين من حلبة الرقص ، واصوات لهاثهم المتلاحق وزفراتهم الحبيسة ... وظلت عينـــاه تترصدان بعناد غريب تحركات صاحبة (المايكروجوب) الاخضر وتتابعان خط تركها ـ هي ورفيقها ـ لحلبة الرقص ، وقهقاتهمـــا السافرة العالية ، ثم اتجاههما نحو مكانه ، واقترابهمـــا المتواصـــل من طاولته ...

دمدم لنفسه بصوت ثقيل متعب : ها هي الزوبعة قد توقفت اخيرا ... سكتت هذه « التنورة » المخيفة ... والآن ، ســوف نرى ايهما الاجمل ... ايهما الاشـــد فتكا ، يا أم (المايكرو) الحريري الاخضر ... نصفك الاعلى ، ام نصفك الاسفل ...؟! هيا هيا ، اقتربي اكثر واكثر ...

اقترب الراقصان من طاولته ، يسبقهما الضحك والهمس ، ولم يبق بينهما وبينه غير متر واحد ••• تحامل على نفسه ورفع رأسه المدلى واعتدل بجذعه المحني ثم ركز بصره على الشخصين الراقصين الجامدين امام طاولته ••• وفجأة ، انطلقت من (الابله) الذاهل ضحكة عريضة مدوية راح على اثرهـــا يقلد صوت خوار الثور الشبق الهائج •••

ووقفت سعاد (بتنورتها المايكرو الخضراء) شامخة متكبرة واخذت تنظر الى حامد نظرة ذاهلة غائمة خرساء •

★ ★ ★

ظل كمال يبحث عن (الابله) ثلاثة ايام متواصلة ، لكنه لم يعثر له على أي اثر او خبر ••• قرر اخيرا ـ بعد تردد طويل ـ ان يذهب الى بيته ليقف على حقيقة الامر من هناك ••• سوف يتجاهل وجود (ناهدة) التي فسخت خطبتها معه منذ سنتين وتزوجت رجلا آخر ••• لقد حرم على نفسه ـ بسببها ـ دخول هذا البيت ، ولكن ماذا يفعل ، و (الابله) يختفى بهذا الشكل المريب الغامض، ولا سبيل الى كشف سرّه الاّ من هناك •

رأته (ناهدة) من بعيد ، فانزوت في غرفتها وتركت امهـــا تستقبله ثم تنهال عليه بعتابها واسئلتها المتلاحقة عنه وعن (هيفاء العزيزة) •••

اتخذ مجلسه على حافة المقعد ، مرتبكا ، ثم اخذ يتطلع الى

ما حوله بوجوم ، بينما ذهبت الام لتهيء لـــه قدحا من شراب الليمون البارد ...

جرفه احساس خانق بالتعاسة والذل وهو يتأمل نفس المشاهد والاماكن التي عكست اصداء خيبته وضآلة شأنه ... انه المكان نفسه الذي تعالت فيه (ناهدة) عليه ورفضت يده وحبه بصمت وعناد ... لو أنها ـ يومذاك ـ قالت شيئا ، لفظت كلمة واحدة ، اشارت اشارة صغيرة ، لهان الامر وخفت قسوة اللطمة ... اما ان تقذف (الحلقة) في وجهك بمثل هذا البرود والجمود والتعالي، فذلك شيء ساحق ومريع ..

أي شعور فاجع بالمرارة والاذلال ، كان يطبق عليه ، يوم كان يرى الاشياء التي ينوي امتلاكها او الاستحواذ عليها ، وهي تفلت من بين يديه وتخطيطاته ... وأي شعور بالسموم القاتلة ، وهي تسري في عروقه ، ويحسها تمزق حياته ، لحظـــة يرى الى (الاشياء التي امتلكها وسيطر عليها) وهي تنتزع منه انتزاعا ، أو تهرب منه ... وقـــد تخف الكارثة وتهون ، لو انتهت هـــذه (الامتلاكات) الى الخراب والدمار .. الى لا شيء ... اما ان تتحول الى غيرك ... ان (يمتلكها) غيرك .. ان يعيشها ويتمتع بها غيرك ... فذلك هو التمزق الماحق والموت الاسود ...

وارتسمت في مخيلته صورة جلية من صور طفولته... ورأى نفسه وهو ينتزع الاشياء من الآخرين ، سرا وعلانيـــة ... كل الاشياء التي طمعت بها نفسه ... اشياء كانت لديه الكمية الوافرة منها ... واشياء اخرى زهيدة وتافهة ... واخرى لا تهمه ولا

تعنيه ، لكنه ارادها وتشبث بها ودنت نفسه عليها فاغتصبها وجمعها كلها بشره جنوني ثم اقفل عليها صناديقه ومخابئـــه السرية حتى فسدت وتعفنت ...

وارتسمت امام بصره صورة (هيفاء) الجميلة الذكية ثـــم انتصبت بجانبها صورة (ناهدة) ثم صورة (سعاد) ... وراح يسأئل نفسه عما يريده من كل هذه الصور ، وعن هدفه من الركض ورائهن ثم الالتصاق بهن ... وجاءت صورة (طفولته الشرهة) وفي يدها الصناديق والاقفال والمخابيء السرية العفنة ...

انتشله من باطن حواراته المتشابكة ، صوت الام ...

ـــ : ماذا بك يا كمال ..؟ لماذا انت حزين وصامت ..؟ هـــذه ليست عادتك ..!!

ـــ : لا شيء يا خالة ... كنت الوم نفســـي على عدم زيارتكم طوال هذه المدة .

وبدون ان يترك فرصة للجواب والدخول الى موضوع آخر قد يفتح جراحه ويعذبه ، بادرها قائلا : انها وحشته ، وانه ما جاء الا لزيارتها خصيصا ، ومن ثم ، ليسأل عن (الابله) الذى لم يره منذ ثلاثة أيام ...

ـــ : انني قلق عليه يا خالة ... ماذا به ..؟ هل هو مريض ..؟!

ـــ : مريض ..؟!! وماذا به ، اسم الله عليه ... انه مثل بغـــل المدار ..!!

ـــ : اذن اين هو ..؟ فكل اصدقائه يسألون عنه ...

ـــ : انه هنا يا بني ... وهو ما زال كعادته من قبل ... يخرج في الصباح الباكر ، ولا يعود الى البيت ، الا ونحن نيام ...

ـــ : أو لم تسأليه ، اين يقضي وقته طوال هذه الفترة ..؟!

ـــ : سألته اخته (ناهدة) ذات مرة ، فانتهرها اولا بشدة ثم عاد وضحك واخذ يهزلها وسطه ويقلد صوت نهيق الحمار ...

راح كمال يتساءل في سره محتارا : لم يسبق (للابله) وان غاب عنه او تركه ، يوما واحدا ، وليس ثلاثة ايام متتالية ... فما السرّ يا ترى ، وما السبب ..؟!! وسمع خالته تقول ..

ـــ : انا ايضا ، أصبحت قلقة عليه في الايام الاخيرة ... انت تعرف انه غشيم وسريع الانقياد ، وأنا اخشى عليه ان يتورط او يقع في مشكلة قد تؤذيه وتؤذي مستقبله ...

ـــ : يقع في مشكلة ..؟ أية مشكلة هذه ..؟ انه ـ كما أظن ـ ليس غشيما الى هذا الحد يا خالة ... ولكن ... ولكن ... اية مشكلة تعنين ..؟

ـــ : لا ادري ـ والله ـ يا بني ... انني قلقة فقط ... رآه زوج اخته ذات يوم وهو يسوق سيارته بسرعة مخيفة ... وكانت بجانبه فتاة ..!!

انتفض كمال واقفا عندما لسعت اذنيه كلمة (فتاة) ... واخذ يتمشى قليلا ليتستر على علامات الذهول التي تجسدت في عينيه وشفتيه . في حين ، بقيت خالته تنظر اليه مبهوتة مستغربة .. توقف عن سيره وسألها وهو جالس على طرف الكرسي ...

ـــ : فتاة ..!؟ فتاة تجلس بجانبه وتخرج معه وحده في سيارة..؟!

ـــ : لا نعرف من هي ... لقد شاهدها الكثيرون معـــه مرات عديدة ، فاخبروا زوج (ناهدة) ... ولكن ...

ـــ : ولكن ماذا يا خالة ... لكن ماذا ...؟!

ـــ : منذ عودتنا من زيارة اهل زوج (ناهدة) في البصرة ، وقلقي عليه يزداد يوما بعد يوم ... كنا ـ يومذاك ـ قد قررنا ان نمكث هناك ثلاثة ايام فقط ، وكنا نتوقع منه ـ كالعادة ـ ان يأتي معنا ، لكنه رفض بشكل مفاجيء لم نجد له سببا او مبررا ، واصر على ان يبقى وحـــده في البيت الخالي ... وتركناه دون ان نلح عليه خشية ان يثور ... وانت تعرف جيدا عناده وثوراته الغريبة المفاجئة ....

ـــ : وماذا حصل بعد ذلك ؟!

ـــ : عدنا في اليوم الرابع بعد المساء فلم نجده في البيت ... ولما دخلت في غرفته ، وجدتها مشوشة مبعثرة بطريقة لم نعهدها فيه من قبل ... كانت ملابسه ملقاة على الارض ، وكانت مغبرة بالطين والقش والحشائش ، ومحملة برائحة السمك التي ملأت الغرفة ... و ...

ـــ : حسنا يا خالتي ... وماذا بعد ...؟! انا ابن خالته ، ولست غريبا ...!!

صمتت الام طويلا ثم عادت تتمتم بكلمات خافتة غامضة لم يستطع ان يفهم منها شيئا ...

صاح ـ بلا وعي ـ بصوت تمتزج فيه الضراعة والصراخ ..

ـــ : ماذا تريدين ان تقولي يا خالتي ..؟ انت تعلمين ، انني احبه واحرص على مصلحته ، مثلك تماما ، فلماذا تترددين ..؟!!

ـــ : انا لا اتردد يا بني ، الا لكوني اخجل من كلامي ... لقـــد وجدت وسادته مليئة بكمية كبيرة من الشعر ... شـــعر امرأة ... وكانت ملطخة بالصبغ الوردي ، كما كانت تفوح منها رائحة غريبة وقوية ... ثم .. ثم وجدت مشابك شعر صغيرة سوداء ... ومنديلا مدعوكا تحت السرير ...

× × ×

« المشهـد :

صف كبير من صفوف (الاول الابتدائي) للبنات .

الدرس : الحياتية .

الموضوع : معلمة شابة تذرع الصف جيئة وذهابا وهي تتطلع في وجوه الاطفال بثقة ورقة وهـــدوء ، ثم تقف امام السبورة وتكتب بخط كبير :

يا أمنـــا المعلمـــة يا نورنا في الظلمه
نحن شجيرات النهى وانت مـــاء المكرمه

تلتفت المعلمة (الشابة) نحو الاطفال ثانية وتقول ـ بنفس الثقة والرقة والهدوء ـ رددوا معي يا اعزائي الاطفال هذين البيتين واحفظوهما عن ظهر قلب ... يردد الاطفال المحفوظة وراء (امهم من هي هذه الفتاة ..؟! هل عرفتموها ..؟!!

المعلمة) عدة مرات ، ثم ينسدل الستار » .

× × ×

انتهى حامد من كتابة الفصل الاخير من مسرحيته الجديدة فأغلق دفتره ثم جلس يدخن بصمت وهدوء ... ها هي اجازته الطويلة التي قدمها الى ادارة معمله قد قبلت ... وها هو قد انتهى من (مسرحيته) ... بعد غد ، سيرحل مع اصدقائه الى المصيف ، وسيرى الشلال الصغير النقى هناك ، ويشرب من مياهه ، ويغتسل بمياهه ... سوف يستعيد كل طفولته هناك ، ويمرح في ظلال سفح معشوشب ، وينام مسترخيا تحت شجرة جوز .

ابتسم لصورة فرحه الطفولية ثم سحب نفسا عميقا من سيجارته ونفثه عاليا برفق ولذة ... الفرح الطفولي الآخر !! . طافت بذهنه هذه الكلمات فبدت له وكأنها قنطرة صغيرة مضيئة ، تعبرها الاحلام الى عالم رحب نظيف ومضيء ... ذات ليلة ، اغرقه فرح طفولي كهذا الفرح ، ثم ... وتذكر ليلته تلك ، فوجفت بسمته وذابت ... ليلة البحث عن السعادة المشتركة ... الفرح الكبير ، كالالم الكبير ... ذهب تلك الليلة ليهب جزء من ذلك الالم الكبير ... وكانت : الارجوحة المنعزلة ... النهر ... النهر اللامتناهي ... لسان النار ... الموسيقى العربيدة الفاجرة . « التنورة » الثائرة الخضراء ... الشموخ والكبرياء والنظرة الخرساء ... ثم الضباب والسقوط وتلاشي المرئيات ... ومازال لا يذكر كيف انتهت ليلته تلك ، وما زال لا يدرى كيف عاد الى بيته ، وكيف نام نهار اليوم التالي بطوله ، كالجثة الهامدة .

هاجمته بغتة ، دهشته وحيرته وتساؤلاته المغلقة : لم يخطر ببالي أبدا ، يا سعاد ، ان افرض عليك واقعا مرسوما ، أو أفكارا محاكة ، أو صيغة حياة معينة ... حدث والتقيت بك كما التقيت بالآخرين ، دون اية شروط والتزامات ... تقبلتك ، كما انت ، كما طرحت نفسك انت ، لانك لم تكوني الاّ عابرة ، ولانني لم اكن مصيرك ولا قدرك ، ولا كنت انت كذلك ، ولانها ، بالتالي حياتك انت التي لا تعني احدا سواك ... اذن ، ما هو الغرض أو الهدف الذي كنت تكذبين وتزوّرين من أجله ..؟ لماذا كنت تتعاملين بلغة الرموز وتصرّين على اطلاق العلاقات والاشارات ..؟ ولماذا كنت تصرّين على دفعي الى حافة مصيدة (ذكية) ذات لغة ومفردات محتشمة وملابس محتشمة وذهن نظيف محتشم ..؟!!

اكفهرت ملامح وجهه فقذف بسجارته بعيدا ثم نهض واقفا واخذ يفكر بصديقه ، صديق طفولته ومراحـــل عمره ، الحميم القديم كمال ... هجم على بيتـــــه كالاعصار ثم جلس مربدّ الاسارير وحكى له (كل شيء) بلهجة شرسة قاتلة ولغة عميـــاء شبيهة بلغة سكين ملوثة صدئة...شعر به ـ يومذاك ـ وكأنه جاء ليتلذذ بذبحه بالكلمات والأوصاف والشـــواهد ... لم يترك صغيرة ولا كبيرة ، الاّ ونبشها ثم هتكها بدقة ومهارة سامة ... عرض امامه (المنديل المدعوك وبعض الشعيرات النسوية الطويلة والمشابك الصغيرة السوداء) ثم اخيرا ، وقف وراح يلوح بيديه ويصيح بصوته المسرحي الطلق ... « الرجال ـ حسب مفهومها ـ سحاب وتراب ، وقد تعودت ان تلبس لكل حالة لبوسها » ...

ثم جلس ثانية ، وبصوت كالفحيح ، راح يفضح له علاقته السرية القديمة معها ، قبل وبعد زواجه من هيفاء وانهـــا لم تضرب عن الزواج ، وتهرب من الرجال والحب ، الا لكونها « خسرته » هو ، كزوج لا بديل له ولا منافس ..!!

عاد حامد الى مجلسه واشعل سيجارة ثم اخذ يتمتم ضاحكا . « واخيرا ، ظهر لك بأنها قد « خسرتك » مع « الابله » ، وانه خير بديل وارفع منافس ، يا عزيزي كوكو » ...

وتجسدت له بقوة ووضوح ، صورة كمال ، يوم كان طفلا هزيلا شديد الشحوب ... تذكره يوم اعترته احـــدى نوبات الصلف والمغالاة والتحدي فقاده الى غرفتـــه وكشف له عن كل محتويات صناديقه وخزائنه السرية المذهلة التي تعفنت وضاعت .. تذكره ، يوم سرق منه (كرة الخرق) ثم ســـكب عليها النفط واحرقها ، وراح يضحك شامتا متشفيا ... وتذكر جملته الشهيرة التي طالما رددها بجرأة ووقاحة « اذا ارغمت على خسران شيء ، فسوف اعمل على ان لا اخسره وحدي » ... وارتسم امام بصره ثانية ، مشهد كمال وهو يخرج من عنده يومذاك ، متعثرا بغضبه وانسحاقه وحقده الاسود المرير .

× × ×

هيفاء تجلس في صالونها وحيدة ، وهي تتـــابع قصة حب تلفزيونية وتهمس لنفسها ساخرة : لا يعرف سر المرأة الا المرأة .. هه ... هه .

× × ×

سعاد و (الابله) : غارقان في موسيقى الشمس والعشب المندى والافياء السمينة والليل وروائح الطين والسمك الطري .

× × ×

كمال : يعود لمرآته ويقف امامها ناقشا صدره كثيف الشعر، غامزا لوسامته ، مرددا بفصاحة « لا منافس لهذه الملامح المليحة ولا قاهر لما وراء هذا الجبين » .

× × ×

حامد : يعيش مباهج اجازته الطويلة ، ويدور مع اصدقائه حول رائحة السمكة المشوية الدسمة ، الطريحة على ظهرها فوق الجمر .

× × ×

المعلمة الشابة : تنظر في ثقة وهدوء الى وجوه اطفال الصف الاول الابتدائي ، وتصيح ...

يا امنـــا المعلمـــه يا نورنا في الظلمه

١٩٧٧-٦-٧